مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

أدوات المعرفة التاريخية
منهج السرد التاريخي عند بول ريكور نموذجًا

عبد السلام بحاج

باحث دكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – القنيطرة

جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يروم هذا البحث، محاولة تتبع أدوات المعرفة التاريخية عند الفيلسوف الفرنسي بول ريكور. وذلك بغرض إغناء المعرفة التاريخية العربية، بآليات تحديثية تساهم في تطوير عملية الكتابة التاريخية. معتمدين لتحقيق ذلك على أدوات المنهج النقدي، الذي يسعى لتجاوز الغائيات الشمولية للتاريخ الخطي. في إطار فضاء للبحث التاريخي، يتميز بالتشظي والتفتت والكتابات الشذرية. وقد بدأنا لتحقيق هذا المسعى، بجرد المفاهيم الأساسية التي اعتمدها ريكور، ومنها الذاكرة كوسيلة للحصول على المادة التاريخية الخام، والزمن التاريخي كامتداد لسير الأحداث التاريخية، وكذلك الفضاء التاريخي، كمجال تجري عليه هذه الأحداث. ثم الحقيقة التاريخية باعتبارها علة، نشوء المعرفة التاريخية. ثم ننتقل بعد ذلك إلى تحديد أدوات المعرفة التاريخية، الأرشفة والتوثيق، إلى الشرح والفهم فالتفسير والتأويل. على اعتبار أن كل عملية إسطوغرافية تتوخى الفهم والتأويل، في ظل الموضوعية الممكنة. وقد تمكننا من التوصل إلى مجموعة من الخلاصات تجملها فيما يلي: الحذر في قراءة الأرشيف التاريخي، ماديًا كان أم رمزيًا، باستحضار الإمكانيات التي تتيحها المحددات الفضاء والزمن التاريخيين؛ بغية الوصول للحقيقة التي تعتبر ضالة المؤرخ. كما أن الخطوات المنهجية، التي بسطها ريكور بدءًا من القراءة فالشرح والفهم؛ ثم التفسير والتأويل، رغم أنها تبدو كلاسيكية، إلا أنها تعد في نظرنا كفيلة بتجديد أدوات المعرفة التاريخية والكتابة التاريخية. والعمل على الوصول إلى الموضوعية التاريخية، التي تغيب في بعض الإنتاجات التاريخية المعاصرة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٢	ديسمبر	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٣	ينـاير	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

السرد؛ التأويل؛ الذاكرة؛ الأرشيف؛ الحقيقة؛ الموضوعية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.271734

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام بحاج. "أدوات المعرفة التاريخية: منهج السرد التاريخي عند بول ريكور نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الخامس والخمسون؛ مارس ٢٠٢٢. ص ٧٤ – ٨١.

Corresponding author: assoubahaj2012@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةُ

عرف ميدان المعرفة التاريخية؛ منذ النصف الثاني من القرن العشرين، ثورات هادئة على مناهج التاريخ الخطي الغائي. الذي أرسيت أسسه منذ عهد الإغريق. مع هيرودوت وتوسيديد، مرورًا بالمناهج ذات الطابع اللاهوتي مع أوغسطينوس والمؤرخين المسلمين. هذه المناهج التي عادت لتلامس الأرض مع كتابة مقدمة ابن خلدون. وقد بلغ المنهج الغائي ذروة تطوره بفضل جهود المدرسة الألمانية بقيادة كل من هيجل ثم كارل ماركس.

وفي مستهل القرن العشرين، حاولت مدرسة الحوليات الفرنسية، التي برزت معالمها بشكل واضح مع فيرناند بروديل وجاك لوغوف تقويض أسس التاريخ الخطي أو الحدثي. كما انضافت إلى ذلك، أبحاث بعض الفلاسفة الفرنسيين الذين عملوا على التنقيب في التراث التاريخي الأوروبي، كميشال فوكو في كتبه " حفريات المعرفة" وتاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ... ثم جاك دريدا وبول ريكور اللذين عمقا البحث في التراث العبري، باستخدام أدوات المعرفة التاريخية العلمية. ومحاولة تجديد آليات القراءة والتفسير، ومساءلة الذاكرة الجماعية، والعمل على تقويض أساطير التأسيس. وهذا ما حفزنا استقصاء بعض من أدوات المعرفة التاريخية عند بول ريكور.

يرى الفيلسوف الراحل بول ريكور Paul Ricœur، أن الكتابة التاريخية، تستمد ماهيتها وهويتها؛ من خلال اعتمادها على الذاكرة أولا؛ وعلى الاسطوغرافيا التاريخية ثانيا، في إطار سيرورة البحث عن "الحقيقة التاريخية"؛ وفق منهج خاص بالمعرفة التاريخية، يعتمد على عمليات مركبة منها، الشرح والفهم فالتركيب والتأويل. وأيضًا على الانخراط الجاد للمؤرخ؛ الذي يبذل جهدا كبيرا؛ في سبيل تحقيق "الموضوعية التاريخية التي تبقى عملية نسبية"[١]. وقد ظل طوال حياته؛ وفيا لفينومنولوجيا هوسرل Husserl، الذي يرى أن "الزمن الفينومنولوجي"، يرتبط بالمعيش اليومي للإنسان، ويتحدد من خلال وعي الذات به[٢]. وأن "الزمن الظاهراتي" يرتبط بالمعيش اليومي، ويتم تحديده من خلال وعي الذات به. أن الوعي بالحاضر ينضم إليه بالضرورة، الوعي بما مضى للتو ولم يعد راهنا[٣].

إن منهجية البحث؛ تتحدد من خلال الشيء موضوع السؤال وليس العكس[٤]. أو كما يرى هايدغر Heideger أن المنهجة تقوم على الطابع الأساسي المميز للأشياء، وللمواضيع ومن الإشكالات التي تطرحها[٥]. ويعتبر ميشال دو سيرتو قارئا جيا لكتابات ريكور، بينما تكاد تخلو الساحة العربية، من مثل هده القراءات التنويرية الجادة. التي تغني حقل البحث في التاريخ والتراث. وهكذا؛ ففي كتابه المعنون بـ "الذاكرة والتاريخ والنسيان" عمد ريكور، إلى تحديد مجموعة من الموضوعات والمفاهيم الأساسية المعتمدة في المعرفة التاريخية. والتي يمكن استخلاصها كما يلي:

أولاً: البحث في تيمات الذاكرة، الفضاء، الزمن والحقيقية في حقل التاريخ

تكتسي المفاهيم الواردة في العنوان أعلاه، أهمية خاصة في عملية فهم وتملك مفاتيح الكتابة التاريخية. باعتبار الذاكرة وعاء يحمل الأحداث التاريخية؛ بوقائعها وآلامها؛ أفراحها وأحزانها. وتتعرض في غالب الأحيان للطمس والإخفاء خدمة لإيديولوجية معينة. أما الزمن والفضاء فهما وعاءان تجري فيهما الأحداث؛ لذا وجب ضبطهما وتحديدهما بشكل دقيق. للوصول إلى الحقيقة التي ترفع التاريخ إلى مصاف العلوم. فما ماهية الذاكرة؟ وما دورها كمصدر للكتابة التاريخية عند ريكور؟

١/١-الذاكرة بين الماهية والتاريخ

تعتبر الذاكرة المعبر الأساسي، الذي تمر منه أحداث الماضي وذكرياته إلى الزمن الحاضر. فهي التي تؤمن انتقال هذه الأحداث إلينا. أو بتعبير أفلاطون تجسد حضور الغياب في الحاضر[٦]. وربطها أرسطو بالزمن؛ فهي تقتسم نفس القدر مع الخيال، وتميز بينهما المسافة الزمنية، التي تفصلهما عن الحدث[٧]. بينما ذهب سقراط، إلى أن معرفة العلامات التي تدل على الماضي، وهي الذكرى والتذكر، التي ترتبط بروح وجسد الإنسان الذي يحملها. ويقول ريكور أننا نحكي قصصا لأن حياة الناس في حاجة لذلك، وكل قصة مهانة تسعى للانتقام وتستدعي السرد[٨].

وركز سقراط على أن كل ما هو مكتوب يبقى خالدا، ولا يتعرض للنسيان الذي هو نقيض الذاكرة، ويظهر في حالة انمحاء العلامات الدالة على فعل التذكر[٩]. فالبحث عن الذكريات والعلامات الدالة على آثار الماضي، هو بمثابة قنص عظيم. ذهب أفلاطون الذي يرى أن الزمن هو عبارة عن صورة متحركة للأبدية الساكنة[١٠]، إلى أن حدوث الخطأ، في مجال الذاكرة يعود أساسًا، إلى انمحاء العلامات الدالة على فعل التذكر، أو إلى خطأ مشابه لذلك، صدر عن شخص وقع في النسيان، أو في تحريف مقصود لما جرى في الماضي[١١]. مما قد يعوق عملية بناء الذاكرة العادلة. وبناء المعرفة التاريخية الصحيحة.

إن الأحداث والوقائع الصحيحة، تساهم في بناء خطاب صحيح. والذاكرة هي فعل التذكر، وهي نسخة من الماضي، تمثل الغياب الذي لا يكون سوى فعل الغيرية للحاضر[١٢]. وهي تنتمي أيضًا لفعل التدوين، عندما يتعلق الأمر بالأرشيف المكتوب، ويكون مرجعها الآخر. إذ لا وجود لمصدر يعد مرجعا للماضي، إلا الذاكرة نفسها[١٣]. أما الذاكرة الشفوية، فتعتمد فعل التذكر البسيط، أو بذل جهد للتذكر، فمع الذكرى يأخذ الغياب العلامة الزمنية للماضي.

١/٢-الزمن التاريخي من المقدس إلى الواقع

يفرق ريكور بين زمنين، الزمن الكوسمي؛ الذي بدأ في التشكل مع بداية تكون الأحجار والصخور، التي تختزن في طبقاتها مستحاثات تشهد على زمن بطيء[١٤]. زمن سابق لظهور الإنسان ينعت بالأبدي، لا يملك ذاكرة جنيالوجية، والذي بدأ يتخلى شيئا فشيئا، عن مكانه للزمن الإنساني. مع ولادة عالم الإنسان والآلهة[١٥] والنبات والحيوان؛ أي عالم الحياة والأساطير. وبين "الزمن التاريخي" من الركائز الأساسية، التي جعلت من المعرفة التاريخية، تدخل في مجال المعرفة العلمية. فهو موضوع اشتقاق وتأمل وتجربة تاريخية[١٦]. عملت ولا تزال تعمل على تشكيل ونحت هذا المفهوم نفسه، كما ساهمت في تخليص التاريخ من الفضاء اللاهوتي والديني والميتافيزيقي. وذلك كي يصير الزمن واقعيا، قابلاً للتحديد والقياس، يعي تجارب الفناء والنهاية؛ والتحديد والاستمرارية. ويرسم خطوط زمنية محدودة ومتناهية؛ على الخط الزمني اللامتناهي؛ في إطار ما يعرف بتقسيم الزمن إلى حقب. حيث صار التاريخ يحتل الفضاءات التي كان يشغلها الدين سابقا. ويتمحور عمل المؤرخ – طبقا لمفهوم الزمن-على مستويين اثنين؛ الماضي الذي عاشه إنسان الزمن السابق، والحاضر، الذي يتم فيه بذل المجهود المعرفي؛ لاستعادة بناء هذا الماضي كما كان[١٧].

يرى لوسيان فيفر Lucien Febvre أن التاريخ يعيش دومًا في إشكال؛ لكون الإنسان يوجد في منأى عن تذكر الماضي، وعلى تشكيله دوما. إنه لا يصنع تاريخا للماضي، إلا عندما يكون في حاجة إلى ذلك في حاضره. فتبعا لحاجات الحاضر، يتم جمع مجموعة من الوقائع وتصنيفها، والعمل على مساءلة الموت بدلالة الحياة.[١٨] في إطار زمن تراكمي، تنضاف فيه أحداث كل حاضر ولى وانتهى؛ إلى أحداث الزمن الماضي، زمن لا يرجع إلى الوراء، حيث تطبع كل الوقائع التي مرت بشكل نهائي الزمن، بواسطة آثار وعلامات تدل على تفرده[١٩].

منذ نهاية القرن الثامن عشر تم رفع القداسة عن الماضي، فأصبح هذا الماضي موضوعا للمعرفة التاريخية، يتم إعادة كتابته وتشكيله عن طريق مساءلة المصادر، وساهم في هذا تقسيم الزمن إلى وحدات متساوية، واستعمال الساعة وتطور الآلة الميكانيكية. كل هذا ساعد التاريخ على تحويل مركز ثقل المعرفة من الماضي، إلى المستقبل كتجدد واستمرارية وغاية في حد ذاته. فوجد بذلك في الأحداث معنى ومستقبلا وغاية، في المسيرة المستمرة للزمن[٢٠].

كما أنه منذ بدايات القرن العشرين، بدأ المؤرخون يتجاوزون الزمن الخطي للتاريخ، بحيث أنه لا وجود لحدث منفرد في الزمن، يمكننا من أن نستخلص خلاصات عامة، تنطبق على مسار تطور تاريخ الإنسانية جمعاء. فقد تم تقويض ما كان يعرف بـ "الحتمية التاريخية"[٢١]. فقد اعتمد بول فين النهج الاستقرائي الذي يعالج النص السردي التاريخي، وإغنائه وفتحه على التأويلات الممكنة، من خلال ملء ثغراته، بفضل محاكاة تسلسل أحداث مشابهة[٢٢].

إن الموت صفة ملازمة للإنسان ومخيفة له، لأنه يملك ذاكرة. أما الحيوانات فهي ليست سوى أعضاء بالنسبة للنوع الذي تنتمي إليه[٢٣]. فالموت يخفي الوجود الإنساني، لذلك كانت الحاجة ملحة للتدوين والتأريخ، ليحفظ هذه الذاكرة من النسيان. فالوجود الإنساني وجود دياليكتيكي/ جدلي، ودرامي محكوم بالفناء والنهاية، التي يحتمها الزمن التاريخي في عالم غير منسجم. جمع ريكور بين اللاحدث والحدث التاريخي، عندما قام بتعويض الزمن الاجتماعي أو الجمعي، بالزمن الفردي، لأنه يبقى دوما نوعا من السرد والحبكة الروائية. تتألف من بنيات وظرفيات ودورات وأزمات، تتقدم بحركة بطيئة لتأخر حدوث الحدث الكبير[٢٤].

١/٣-الفضاء التاريخي كحقل لصنع الأحداث

يمكن اعتبار المجال التاريخي، كتأطير هندسي للفضاء؛ الذي كان يعيش عليه الإنسان، أي شبكة "الأماكن" أو المجالات التي تجري عليها أحداث تاريخية معينة. ويرى ريكور أنه، لا يمكن اختزال الزمن التاريخي السردي، والمجال التاريخي "المشكل" كأرضية جرت عليها أحداث هذا الزمن، إلى أجزاء من الزمن الكوسمي ومن الفضاء الهندسي. فالمجال الذي يشكل فضاء قابلاً للقياس وللحساب، فضاء قابل لحياة الإنسان ويشكل وسطًا لعيشه[٢٥]. كما يضع رابطا متينا بين المجال المأهول والزمن التاريخي، فكل حدث تاريخي يقع داخل مجال معين؛ وفي زمن معين، وهذا ما يجعل التاريخ وطيد الارتباط بالجغرافيا

والكارطوغرافيا[٢٦]. التي احتلت مكان الجيولوجيا حيث كانت الأرض بال معالم؛ وبدأت ترسم مسالك وخرائط، وتترك أثارا ونقطا وخطوطا هندسية، تسهل تنقل الإنسان داخل هذا الفضاء.

إن المجال وسط للاستقرار والتعمير والتحرك والتنقل؛ يشكل فضاء للعلاقات والصراعات الكبرى للبشرية. وللبناء والتشييد، فكل مبنى جديد يشيد، يسجل داخل مجال التعمير؛ كحكاية في وسط من التناص الأدبي[٢٧]. يسجل تقاطعات وتجاذبات، عزلة وتباعد، ألام وأفراح محكية، قصص تم خطها داخل منازل؛ توجد على المجال التاريخي، من قبل أشخاص معروفون أو منسيون.. إنها أحداث السرد التاريخي.

المجال كفضاء تتدخل فيه عناصر أساسية، تصنع التاريخ الإنساني، مثل المناخ والتضاريس والمجاري المائية، بحيث يأخذ المجال التاريخي معناه الجغرافي، باعتبار الجغرافيا المعين الأساسي للتاريخ[٢٨]. ويرى المؤرخ الفرنسي بروديل Braudel أن المكان والمجال يحملان معنيين متكافئين. وهو وسط لتسجيل التذبذبات البطيئة[٢٩]. ومكان لإنجاز الأنشطة الاقتصادية والمبادلات التجارية والثقافية بين الشعوب. فالمكان وسط لعيش الإنسان ولصنع الحضارة " إن الحضارة في أساسها هي مجال تمت خدمته من قبل الإنسان والتاريخ"[٣٠]. والحضارة هي مستقر قديم لشعوب إنسانية قديمة[٣١].

٤/١-الحقيقة التاريخية ضالة المؤرخ

في إطار معالجة مفهوم "الحقيقة"، كرهان تاريخي يتحدد في مستوى الحركية الجينيالوجية، المتأصلة في فلسفة نيتشه. أو بتعبير بسيط؛ محاولة معرفة ما هو صحيح فعلاً، فيما تحويه المدونات التاريخية. يذهب ريكور إلى اعتبار "الحقيقة التاريخية" مفهومًا نسبيًا، ورهينًا بنسبية الزمن التاريخي نفسه. الذي تخلص عبر سيرورة من البحث والتجديد في المناهج، وأدوات الاشتغال التي يوظفها المؤرخ. من مقولات "الحقيقة المطلقة" و"الزمن اللامتناهي"[٣٢]؛ ووجود إرادة حتمية تتحكم في سير أحداث التاريخ اللاهوتي، وفلسفة التاريخ الغائية، وذلك بعد أفول فكرة "النسق" واتسام الفلسفة المعاصرة؛ بطابع النسبية التاريخية؛ خصوصا مع الفلسفة الفرنسية المعاصرة، مما انعكس بالإيجاب على حقل المعرفة التاريخية، التي أصبحت تساءل وتعمل على خلخلة مفهومي "الحقيقة" و"الزمن". فالحقيقة التاريخية لا تنكشف لنا، إلا عن طريق بذل الجهد الضروري للوصول إلى "الموضوعية". فنحن نحاول استحضار الماضي، لقراءته وإعادة قراءته من جديد؛ نستحضره في "الزمن الحاضر" للبحث عن الحقيقة واستشراف المستقبل، بناء على تجارب الماضي والحاضر[٣٣]. وهذه الحقيقة لا يمكن أن تفلت من قبضة النسبية، التي أملتها الشروط التاريخية. فلا يمكن الحديث عن "الحقيقة التاريخية المطلقة"[٣٤]، كما كان الأمر سائدا لدى صانعي التاريخ اللاهوتي.

والنسبية تمليها أيضًا، مقولات التعددية والمغايرة التي تميز المجتمعات الإنسانية، والطابع المركب للظواهر الإنسانية؛ مما ينتج معه مقاومات متعددة لمفهوم الحقيقة التاريخية المطلقة. لأن هذه الأخيرة تصطدم بمقولة الزمن المنتهي. وتعمل النسبية داخل حقل التاريخ، كمفرد وجمع ي نفس الوقت؛ إنها تواريخ خاصة يشملها التاريخ الكوني. لا يمكنها أن ترسم مسارًا وحيدًا وموحدًا للتاريخ الإنساني نحو "خلاص واحد" كما يصبو إلى ذلك أصحاب التاريخ اللاهوتي وفلسفة التاريخ الغائية. أن الموضوع الحقيقي للدراسة التاريخية، ليس موضوعًا، ولكن وحدة لهذا "الواحد"، ولهذا "الأخر"، العلاقة التي تتكون ضمنها، الحقيقة التاريخية باعتبارها نتيجة للفهم التاريخي"[٣٥].

ثانيًا: إبستمولوجيا المعرفة التاريخية

تمر عملية الكتابة التاريخية، وإنتاج النص التاريخي حسب بول ريكور عبر ثلاثة مراحل، وهي المشكلة لعملية الاسطوغرافيا التي تعتبر أولا وقبل كل شيء ذاكرة مؤرشفة[٣٦]، وهذه المراحل ليس لها بعد زمني كرونولوجي معين. وإنما هي لحظات منهجية متداخلة فيما بينها[٣٧]. ومستويات ثلاثة مقترحة من خلال الرؤية الإبستمولوجية لهذا العمل الذي وضعه ريكور. حيث يستهل الباحث في التاريخ عمله باستشارة أرشيف الوثائق.

١/٢-عملية قراءة الوثائق والأرشيف

إن الالتجاء إلى أرشيف الوثائق التاريخية مادية كانت أو مكتوبة أو شفوية، عملية توجهها رؤية استراتيجية، تستهدف تحقيق "الفهم" و"التفسير" و"التأويل". وذلك من أجل إنتاج نصوص تاريخية، باستخدام اللغة وأساليبها البلاغية والتخيلية، في قالب سردي، بمعنى آخر خضوع الذاكرة الحية، التي عاصرت إنتاج تلك الوثائق لإرادة المؤرخ [٣٨]. فلا أحد (أي لا مؤرخ) يستشير الوثائق، دون استحضار فرضية محاولة الفهم. ولا أحد يعمل على تفسير الأحداث التاريخية، دون استعمال الأسلوب الأدبي، ذو الطابع السردي والبلاغي والتخيلي[٣٩].

يطرح دائمًا، عند القيام بمعالجة الأرشيف؛ سؤال الثقة والأمانة التي يتحلى بها من أنتج هذه الوثائق، ولهذا تعترض عملية قراءة هذه الوثائق، التي يتوفر عليها أرشيف التاريخ،

وتأويلها عدة صعوبات؛ تتمثل في صعوبة التحديد الزمني للوثيقة التاريخية نفسها، في إطار عمليات الاختبار والتحديد والمقارنة مع الوثائق الأخرى. وأيضًا الدخول معها في حوار ومساءلة[٤٠]، لكي تكون الاستشارة التي يقوم بها المؤرخ للشواهد عملية إيجابية وذات نتائج، حيث أن الشاهد le témoin السلس هو الذي يحمل ويؤدي عبر الزمن وظيفته، ومن هذه الشواهد، تبرز الذاكرة التي تصرف كل جهودها؛ لتمكين الشاهد (وثيقة مكتوبة أو شفوية) من أداء شهادته[٤١].

وتتمثل الصعوبة الثانية؛ في محاولة تحديد مكان التاريخ؛ داخل متن الخطاب الذي أنتج في الماضي، ما بين حقلي الأدب والعلم؛ بين عملية القراءة العالمة والخيال الكاذب، بين التاريخ العلم والسرد التاريخي[٤٢]. لأنه من بين الآليات التي، التي توظفها الميتافيزيقا في إنتاج معاني اللغة، كثافة العلامة؛ وفصل الدال عن المدلول. لذا وجب محاولة تجريد العلامة من طابعها الكثيف، وتكريس التصور الأداتي للغة، أي إقامة المطابقة بين الدال والمدلول.

أما الصعوبة الثالثة فتحدد في عسر استنباط " الحقيقة التاريخية" من ثنايا النصوص الشعرية والنثرية، ومن الأسطورة، مع ما يقتضيه ذلك من معرفة موسوعية، باللغة والفيلولوجيا. فالمؤرخ يستنطق الوثائق، كمواد لإعادة صنع ذاكرة الأحداث، والقيام بمقارنتها بباقي الوثائق التي تحتويها الإسطوغرافيا التاريخية[٤٣]. حيث يستبعد ريكور الوهم الشامل لفهم فوري لموضوع البحث، وأيضًا الوهم العقلاني لفهم نص بواسطة لعبة مبادلاته الداخلية[٤٤].

ويبرز إشكال آخر، يكمن في درجة الحذر والشك المنهجي، الذي يتحلى به المؤرخ؛ وكذلك درجة الثقة في قول الغير، المثبت في الوثائق التاريخية؛ حتى لا يسقط في الدوغمائية المنهجية، أو الثقة المبالغ فيها فيما تقوله الوثيقة. فالمؤرخ ليس موثقا، وإنما هو قارئ جيد للوثائق التاريخية. فالحس النقدي للمؤرخ يساعده على نقد الشواهد، واستخراج ما تحمله الوثيقة من حقائق. إن وهذه المرحلة صعبة وشاقة؛ خصوصًا وأن المؤرخ يحمل هم إضاءة وكشف مجموعة من المعاني التي تبدو غامضة، بغرض فهم أفضل. فأثناء هذه المرحلة، يعمل المؤرخ على جعل الأموات وكل الأشياء الصامتة تتكلم[٤٥]. ويبعثها على مسرح الأحداث التاريخية من جديد، ينتشلها من النسيان الذي يطال الذاكرة الإنسانية.

كما تظهر إشكالية "المسافة الزمنية"، التي تفصل الباحث عن الحدث التاريخي، فالمسافة الزمنية لا يجب اختزالها، أو اعتبارها عائقا أمام حصول الفهم السليم. فالمسافة الزمنية تساعدنا على تجاوز سوء الفهم mécompréhension وبناء الأحكام الصحيحة[٤٦]. ويقول غادمير "عندما نبحث من أجل فهم ظاهرة تاريخية، عبر المسافة الزمنية، التي تحدد إجمالا وضعيتنا الهيرمنوطيقية، نكون دوما خاضعين لتأثيرات التاريخ والحركة"[٤٧].

٢/٢-عمليتا الشرح والفهم

تأتي عملية شرح مضمون الوثيقة التاريخية ومحاولة فهمها، في المستوى الثاني لعملية إنتاج الخطاب التاريخي[٤٨]. بعد المستوى الأول الذي هو استعمال الأرشيف. نظرًا للدور الهام الذي يكتسيه الفهم، فهو سابق لعملية التأويل، لأنه يمكننا أن نقوم بالتفسير دون الفهم، كما فعل نيوتن عندما فسر فعل سقوط التفاحة؛ على أنه راجع لتأثير الجاذبية دون أن يفهم ماهية الجاذبية. ولذلك فالفهم في نظر ريكور شرط أساسي للقيام بعملية تأويل ما جرى في الماضي من أحداث.

فخلال هذه المرحلة يحاول المؤرخ، البحث عن الأسباب والعلل، التي ستجيب عن أسئلته، وستثبت أو تفند الفرضية التي ينبني عليها مشروعه. فينتقل بذلك من التوثيق إلى الشرح والتعليل بالأسباب؛ أو الشرح النهائي. فعملية شرح مضمون الوثائق؛ حسب ريكور لا تقف في تضاد مع عملية الفهم، فكل من العمليتين تكمل الأخرى[٤٩]. فالفهم عملية أعمق من عملية التأويل، فقبل الفهم يوجد فهم قبلي، يتم التمعن فيه للوصول إلى الفهم العميق[٥٠]. ولاستبعاد سوء الفهم. فالمعرفة التاريخية، تسعى لفهم الحدث كما كان، لا كما يتصوره المؤرخ، بينما تبقى مهمة هذا الأخير، هي استخراج المعاني والدلالات الممكنة من النص.

يقبع المؤرخ في موقع الملاحظ التبصر، في موقع خارجي بالنسبة لموضوع الدراسة، وذلك بفضل المسافة الزمنية التي تفصله عن زمن الحدث التاريخي. لينتج نوعا من الموضوعية؛ التي لا تكتمل. بسبب تدخل ذات المؤرخ المتأملة، التي تحدد خطاطات العملية التاريخية، والتي تقوم بنقد كل أطوارها ومراحلها "وبكل دقة فإن الذاتية هي عمل الفاعلية المنهجية، ولهذا تحمل هذه الفاعلية اسم النقد"[٥١].

وقد نبه ميشال دو سيرتو Michel De Certeau إلى تعدد أنواع السرد وإلى "تدخل سيرورة الشرح/ التفسير، كانتقال وتحول في حقل السرد التاريخي"[٥٢]. فالوثيقة كمادة خام، سواء كانت محفوظة في المتاحف أو الخزانات أو المواقع الأثرية، يمارس عليها المؤرخ مناهجه، بدءا من طرح السؤال (لماذا

Pourquoi)، ثم محاولة الفهم الشرح؛ وصولا إلى التفسير والتأويل باستعمال الأداة " لأن". حيث يجب على المؤرخ أن يربط حقل دراسة الموضوع الذي يشتغل عليه بسلسلة من الأسئلة، تخدم الفرضية أو الفكرة العامة الموجهة للموضوع(٥٣).

٣/٢-التفسير والتأويل

يعتبر التأويل عملية تطبيقية أكثر منها نظرية، لأنها تبعث أحداثًا تاريخية مضت من مراقدها. أناس تعرضوا للموت والفناء، يتكلمون من جديد. وهو المستوى الثالث للخطاب التاريخي. ويكون مصحوبا بعملية الصياغة الأدبية للنص التاريخي، فيما يعرف بالسرد، الذي لا يخلو من البلاغة التخيل. وينبغي أن ينطلق من أن الفهم هو الوجود في علاقة مع النص نفسه، الذي يجمع مخلفات الماضي، ويقوم بعملية اتصال بها(٥٤). ويتساءل ريكور فيما إذا كانت هيرمينوطيقا غادامير قد قامت بتجاوز نقطة انطلاقها من الرومانسية، وكونها تؤكد أن الإنسان يجد غايته النهائية في كونه يسبح في النصوص التراثية(٥٥)؟

إن الكتابة التاريخية؛ هي ليست فقط عملية إعادة ترتيب الوثائق، أو تحقيقها وإصدارها في حلة جديدة. بل هي التي تعمل على طرح السؤال القلق باستمرار؛ على هذه الوثائق. مع تنويع أدوات الاختبار، التي استعارتها من حقول مجاورة. وهي تحاول بعث الماضي كما كان، وأحداثه كما جرت بالفعل. وأثناء هذه المرحلة، يجب الحذر من المعاني التي تؤديها "مفردات" اللغة. أثناء عملية السرد التاريخي، التي يقرر فيها المؤرخ؛ من منظوره وتصوره للأحداث. ما وقع بالفعل، وإعادة بناء تاريخي لما حصل بالفعل(٥٦).

يترجم المؤرخ الأحداث والأشياء، ويسميها بمصطلحات عصره؛ فيقع في إشكال التوفيق بين لغته، ولغة موضوع الدراسة التي يشتغل عليها. ويفرض عليه هذا بذل مجهود كبير من التخيل والاستعارة؛ ليرفع اللبس عن خطابه وليؤمن الانتقال الضروري لحاضر هو حاضره. وليجعل النص الذي يقوم بنسجه مقروءًا من قبل معاصريه. وقد سبق لفيكو Vico أن أكد على دور الخيال؛ في طريق الكشف عن الحقيقة ف " قبل أن نصل إلى تصورات أو مفاهيم، نفكر في إطار مواقف أقرب إلى الغموض وانعدام التحديد"(٥٧). فصناعة التاريخ هي – حسب فيكو-عمل من الأعمال، التي يصنع فيها العقل البشري نفسه(٥٨).

إن الكتابة التاريخية –شئنا أم أبينا-باعتمادها آليتي التفسير والتأويل؛ تخدم أهدافًا مختلفة، وتستند لمنطلقات متباينة " فالقراءة التاريخية لا تشتغل بالأحكام الوثوقية، كما أن القراءة الرسمية للكنيسة لا يمكنها أن تقتصر على التجاهل الكلي، لما يكشفه العمل الأركيولوجي...تمامًا مثلما القراءة الفلسفية للنصوص التوراتية لا تستطيع بدورها أن تتجاهل المنحى العقدي والأبحاث التاريخية-الفيلولوجية"(٥٩). ويستشف من هذا النص، ضرورة تجنب الأحكام الجاهزة والمسبقة؛ وكذلك الأحكام الدوغمائية والنهائية. وفتح التأويل أمام مستجدات البحث الأركيولوجي؛ الذي يكشف عن الجديد، ويفند الحقائق المطلقة، وكذلك اللجوء للفيلولوجيا للكشف عن المعاني الحقيقية التي تعبر عنها مفردات النصوص.

إن كتابة حبكة الرواية التاريخية، ليست سوى إجابة ممكنة؛ لبحث هوياتي عن الأصول الأدبية لعلم التاريخ، في إطار لعبة التخصيص والتفسير والتأويل الهرمينوطيقي، الذي لا يظهر إلا حبكة النص(٦٠). ويرفض ريكور بعض الأطروحات الأمريكية، التي تسعى لإزالة الحواجز بين الكتابة التاريخية التي تعتمد الوثائق؛ والكتابة الروائية التي تعتمد على الخيال المحض، رغم اشتراكهما في استعمال الأساليب البلاغية، لأن الأولى تهدف إنتاج خطاب للحقيقة. وهي تنبثق أيضًا من إبستمولوجيا تمزج بين الذاتية والموضوعية، ما بين الشرح والفهم، وما بين جدلية الأنا والآخر(٦١). إن الاعتراف بالتعددية والمغايرة، التي يزخر بها التراث الإنساني. يسمح بالاعتراف بحق الغير؛ والكشف عن المركزية، والمسار الأحادي للتاريخ البشري "فالاعتراف بقبول الآخر، ليس بالأمر الهين، طالما يقود المنهج التاريخي النقدي، القراءة التفهمية إلى الإقرار بتعدديتها"(٦٢). فمن ميزات التاريخ النقدي؛ أنه يسمح لنا بتصحيح ونقد الأوهام التي تدون على تاريخ جماعة معينة، تنغلق على نفسها، وتضفي عليها قداسة مطلقة(٦٣).

ونتساءل مع شارل رياغان Charles Reagan، هل يمكن اعتبار الكتابة التاريخية؛ كحل أم كسم (تفاحة مسمومة) بالنسبة للذاكرة كأول مصدر للتاريخ؟ فللمرور من الذاكرة إلى المعرفة التاريخية، يجب علينا المرور من الزمن المعاش إلى الزمن الكوسمي(٦٤). فالكتابة التاريخية أو السرد التاريخي، بعد مرحلتي التوثيق والفهم/ الشرح؛ يعتمد إجمالا الأسلوب الأدبي في صياغة الأحداث. وللإجابة على انتظارات القارئ.

يخضع تكوين الحدث التاريخي، إلى صياغته وتشكيله في لعبة الحبكة التاريخية، التي تعتمد الاستعارة والخيال الأدبي. إنها الوسيط الذي يؤمن جعل معنى هذا الحدث ماديًا وملموسًا. وهكذا يعتبر السرد الوسيط الذي يساهم في بناء العمل التاريخي، وكذلك ربط فضاء التجربة التاريخية بفضاء انتظار

القراء والباحثين. كما أن مركزية السرد، تجعل قدرة الخطاب التاريخي نسبية؛ على الشرح والفهم القطعيين، بناء على ميكانزمات السببية العقلانية.

إن صياغة النص التاريخي، تعتبر صناعة أدبية، حيث يقوم خلالها السارد بالبرهنة على ما يكتب، إنه منطق الحبكة، إنها نقطة انطلاق لكل عملية سرد تاريخي(٦٥). وإجمالاً فإن، القراءة التاريخية للحدث التاريخي، لا تعود إلى زمن الحدث المدروس، ولكنها تظهر في أثره، وتتموضع داخل سلسلة من الأحداث، فكل خطاب عن حدث يقود إلى سلسلة من الأحداث السابقة، مما يعطي أهمية لنسيج النص، الذي يربطها داخل حبكة روائية.

٤/٢-سؤال الموضوعية في الكتابة التاريخية

يبدو أنه من الاستحالة، كتابة نص تاريخي "مثالي" خال تمامًا من النزعات الثقافية والدينية والوطنية لشخص المؤرخ، بمعنى أن يتجرد صانع النص التاريخي تمامًا، من كل إحساساته وميوله ودوافعه القومية والثقافية والدينية والعرقية؛ من أجل كتابة نص تاريخي زمني، ومجرد في نفس الوقت، أي لا يخضع لأدنى الأحكام المرتبطة بشخص المؤرخ(٦٦).

وإذا ما سلمنا بوجود مثل هذا النص، فقد يكون المؤرخ مجرد موثق؛ جامع للمادة التاريخية، دون أن يكون له الحق في التصرف فيها. فكل جمع وتحديد للوسائل المادية هو بمعنى ما تدخل في سير التاريخ ومحاولة لتحديد مساره(٦٧). فمع هيرودوت صارت الأحداث والكلمات والأشياء، التي يجب أن يقتصر وجودها على الإنسان كموضوع للكتابة التاريخية، وبفضل هذه الصناعة صار الإنسان مكافئا للطبيعة. ووحدها الأحداث والأفعال والأقوال الصادرة عن الإنسان هي التي ترفعه؛ إلى مستوى التحدي الحاضر دومًا في الكون(٦٨). فتاريخ حدث لشخص أو شعب أو معبود... يصير شيئًا خارجيًا عنه، لأنه يخضع للتأويل والتفسير الراجع لشخص المؤرخ وتكوينه وميولاته وانتماءه الطبقي والثقافي والوطني. فالمؤرخ يحمل مهنة مزدوجة فهو موثق يجمع، وقاض يؤول ويصدر الأحكام على الوثائق التي جمعها(٦٩). فالمؤرخ يمكنه معرفة الوقائع التي جرت في الماضي، انطلاقا من الآثار، التي خلفت بواسطة الشواهد والفاعلين. وذلك بشكل موضوعي، لأن الماضي معطى لا يستطيع أحد تغييره أو تعديله أو التصرف فيه بالإضافة أو الحذف.

٥/٢-التاريخ المفرد والتاريخ بصيغة الجمع

من بين المفاهيم التي واجهتها فلسفة التاريخ، مفهوم "التعدد الإنساني"، الذي يشتغل من داخل مفهوم التاريخ نفسه، كتاريخ "بصيغة المفرد والجمع". إنها تواريخ خاصة يريد التاريخ الكوني أن يبتلعها ويحتويها. وتستمد هذه الخصوصية انطلاقًا من عدة معايير:

- الجغرافيا بكل عناصرها المتعددة، التضاريس والمناخ واللغة...
- نمط الإنتاج السائد داخل هذا المجال الجغرافي.

كل هذا يعترض على فكرة إيجاد "مسار تاريخي" وحيد للإنسانية، كما يذهب إلى ذلك فلاسفة التاريخ، الذين يهملون فكرة التعدد. فولادة التاريخ المفرد/ الجمع l'histoire collectif singulier، يشمل مجموع "التواريخ الخاصة" كان مع هالفاكس Halbachas، وهو الفتح المتمثل في أن التاريخ صار "موضوعا خاصا" للتأمل التاريخي(٧٠).

خَاتِمَةٌ

إن كل عملية جادة الكتابة التاريخية، لا بد وأن تستدعي الجانب المعرفي والنظري، الذي يسعى جاهدًا، وراء الحصول على الحقيقة التاريخية. التي هي ضالة كل مؤرخ جاد، يتوخى الموضوعية الممكنة. ويتسلح بالمعرفة النظرية اللازمة. وهذا ما لمسناه بحق، ونحن نغوص في أعماق، البحث عن المعرفة التاريخية عند الفيلسوف الفرنسي بول ريكور. الذي يرجع إلى التراث الإغريقي، لنفض الغبار، عن بعض المفاهيم كالذاكرة والتاريخ، والذي يجعل من أولويات استعمال الأرشيف، والمادة التاريخية الخام، هي الفهم والتأويل وإنتاج نص جديد يتوخى الحقيقة ويروم الموضوعية.

الاحالات المرجعية:

(1) Ricœur Paul, La mémoire, l'histoire, l'oubli, Editions du Seuil, Paris, 2000, p. 387.
(2) Husserl Edmond, Idées directrice pour Phénoménologie, Gallimard, 1950, p. 230.
(3) Ibid, p. 230.
(4) Arrien, S.-J, Introduction ; Paul Ricœur (1913-2013) , méthode et finitude. Philosophiques, 41(2), p. 233.
(5) Ibid, p. 234.
(6) Ricœur, La mémoire ...op.cit., p.7.
(7) Ibid, p. 23.
(8) Ricœur Paul, Temps et récit, volume 3, Seuil, Paris, 1983-85, p. 115.
(9) Ricœur, La mémoire...op.cit, p.14.
(10) Onfray Michel, Les formes du temps ; Théorie du sauternes, éditions Moliat, Paris, p. 14.
(11) Ibid, p. 8.
(12) Ibid, p. 21.
(13) Ibid, p.26.
(14) Onfray Michel, Les formes du temps...op.cit, p. 14.
(15) Ibid, p. 19.
(16) Ricœur, La mémoire...op.cit, p. 393.
(17) Marrou Henri Irénée, De la connaissance historique, éditions Seuil, Paris, 1954, pp. 32- 37.
(18) Febvre Lucien, Combats pour l'histoire, Editions Colin, Paris, 1965, p.437.
(19) Vigne Eric, Le temps de l'histoire en question, In Vingtième siècle, revue d'histoire, 1985, p. 132.
(20) Ibid, p. 133.
(21) Ibid, p. 134.
(22) Veyne Paul, *Comment on écrit l'histoire,* Paris, Éditions Seuil, 1971, p. 103.
(23) Arendt Hannah, La crise de la culture, huit exercices de pensée politique, traduit de l'anglais sous la direction de Patrick Lévy, Gallimard, 1972, p. 59.
(24) Ricœur Paul, Temps et récit, l'intrigue et le récit historique, Tome 1, Seuil, 1983, p. 247.
(25) Ricœur, La mémoire ...op.cit, p. 186.
(26) Reagan Charles, Réflexions sur l'ouvrage de Paul Ricoeur, la mémoire, l'histoire et l'oubli, In Revue Transversalités, n° 106, 2008/2, p. 169.
(٢٧) - Ibid., p. 183.
(28) Ibid., p. 188.
(29) Ibid., p. 189.
(30) Ibid., p. 189.
(31) Dosse François, L'histoire en miettes ; des Annales à la nouvelle histoire, La Découvete, 1987, p.131.
(32) Ibid., p. 399.
(33) Ibid, p. 394.
(34) Ibid, p. 399.
(35) Gadamer G.H, Vérité et méthode, les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, éd Intégrale, établis par, P. Fruchon ; G. Grondin et G. Merlio, Seuil, Paris, 1996, p. 321.
(36) Ricœur, La mémoire ...op.cit., p. 183..
(37) Ricœur, La mémoire ...op.cit., p. 170..
(38) Ibid, p. 170.
(39) Ibid, p. 443.
(10) Ibid, p.181.
(41) Ibid, p. 446.
(46) Ibid, p. 419.
(44) François Dosse, Paul Ricœur et l'écriture de l'histoire ou comment Paul Ricœur révolutionne l'histoire, In cahiers de recherche sociologiques, n° 26, 1996, p. 141.
(45) Ibid, p. 447.
(46) Gadamer G.H, Vérité et méthode, les grandes lignes d'une herméneutique philosophique...op.cit, p. 320.
(47) Ibid, p. 322.
(48) Ibid, p. 235.
(49) Ricœur Paul, Objectivité et subjectivité en histoire, Décembre 1952, repris dans Histoire et vérité, Seuil, 1955, p.26.
غـادامير جـورج هـانس، مـدخل إلى أسـس التأويـل، ترجمـة شـوقي الزين، مجلة فكر ونقد، العدد ١٦، ١٩٩٩، ص. ٨١.
(50) Ricœur Paul, Objectivité et subjectivité en histoire...op.cit, p.26.
(51) De Certeau Michel, Début autour du livre de Paul Ricœur ; Temps et récit, Confessions, cahiers de lectures, Débats, 1984, p.24.
(٥٢) Reagan Charles, Réflexions sur l'ouvrage de Paul Ricœur, la mémoire, l'histoire et l'oubli...op.cit, p. 170.
(٥٣) غادامير جورج هانس، **مدخل إلى أسس التأويل**...مرجع سابق، ص. ٩١.
(54) Ricoeur Paul, Du texte à l'action, Essais hérmeneutiques II, Seuil, Paris, 1982, p. 97.
(55) Reagan Charles, Réflexions sur l'ouvrage de Paul Ricœur...op.cit, p. 211.
(٥٦) راسل برتراند، **حكمة الغرب**، ترجمة فؤاد زكرياء، الجزء الثاني، الكويت، ١٩٨٣، ص.٩٧
(57) Rubinoff Lionel, Vico and verification of historical interpretation, In Vico and Cpntemporary Thought, 1976, p. 94-121.
(٥٨) ريكور بول، **الانتقاد والاعتقاد**، ترجمة حسن العمراني، دار توبقال للنشر، البيضاء، ٢٠١١، ص. ٥٨.
(59) Vigne Eric, L'intrigue mode d'emploi, In revue Esprit, n° 140/141(7-8), Juillet- Aout 1988, pp. 249- 256. p. 256.
(61) Ricœur Paul, Objectivité et subjectivité en histoire...op.cit, p.30.
(٦٢) المرجع نفسه، ص. ٦١.
(63) Ricœur, La mémoire ...op.cit., p. 721.
(64) Reagan Charles, Réflexions sur l'ouvrage de Paul Ricoeur,....op.cit, p.169.
(65) Ricœur Paul, Temps et récit...op.cit, p.251.
(66) Arendt Hannah, La crise de la culture, p. 68.
(67) Ibid, p. 68.
(68) Ibid, p. 66.
(69) Ricoeur, La mémoire ...op.cit., p. 387.
(70) Ricoeur, La mémoire ...op.cit., p. 393.